الفصل الثانى

تصنيف مناهج البحث التربوى والنفسى والاجتماعى
فى ضوء حجم المبحوثين

مقدمة.

أولاً : مناهج دراسة الحالات الفردية :

(١) المنهج الاثنوجرافى.

(٢) المنهج الإسقاطى.

(٣) المنهج الكلينيكى.

ثانيًا : مناهج دراسة العينة :

(١) افتراضات العينة.

(٢) أنواع العينات.

ثالثًا : منهج الأصل الاحصائى العام :

(أو منهج دراسة الأصول الكلية).

. كلمة ختامية.

مقدمة:

يتناول هذا الفصل عدة مناهج فى البحث العلمى فى ضوء بُعد واحد هو حجم المفحوصين. هى على التوالى: مناهج دراسة الحالات الفردية، ومنهج دراسة العينة، ومنهج دراسة الأصل الإحصائى العام، أما مناهج دراسة الحالات الفردية فتتضمن ثلاثة مناهج رئيسية، فالاثنوجرافيا كفرع من فروع الانثروبولوجيا يهتم بالدراسة العلمية للثقافات الفردية فى سياقها الخاص، وهو بهذا المعنى ينتمى إلى المنهج الذى اقتصر استخدامه فى الماضى على الشخصيات الفردية، والذى يطلق عليه دراسة الحالة، ولذلك يرى بعض الباحثين أنه من الممكن دمج المنهجين معًا(الاثنوجرافى ودراسة الحالة) فى فئة واحدة .

والإسقاط فى التحليل النفسى الكلاسيكى ـ كما أورده " فرويد" ـ هو العملية التى بواسطتها يزيح الفرد سماته وانفعالاته وميوله واتجاهاته.. إلخ ويلصقها بشخص آخر. واللفظ يستخدم فى نظرية التحليل النفسى ليتضمن أن هناك إنكارًا مصاحبًا لملكية الفرد لهذه المشاعر والاتجاهات وأن الإسقاط يؤدى عمله كحيلة دفاعية لحماية الفرد من القلق، وأن بعض الصراعات الكامنة قد تم كبتها؛ ولذلك تسعى البحوث والدراسات التى تستخدم المنهج الإسقاطى إلى حل هذه الصراعات على المستوى الشعورى باستخدام أساليب وفنيات إسقاطية لجمع معلومات عن شخصية الفرد، أو فهمًا لها بإتاحة الفرصة له ليستجيب بطريقة غير مقيدة لموضوعات أو مواقف غامضة. والكلينيكية ـ صفة من كلمة كلينيك بمعنى عيادة، وهى تمثل مدخلًا للشخصية والعلاج النفسى يركز على الفرد ككل، أكثر من بحثه عن مبادئ عامة أو القيام بدراسات معيارية، كما تشير كلمة عيادى Clinical إلى الممارسة التى يقوم بها الأخصائى النفسى الكلينيكى والتى تقوم على الملاحظة،

التى تكون أحيانًا منظمة قد تبلغ التقنين، وقد تكون غير منظمة، وذلك لعدد قليل من المفحوصين فى مواقف طبيعية، وكثيرًا ما تقوم المقارنات بين المنهج الكلينيكى والمنهج التجريبى الذى يؤكد على إجراء بحوث ودراسات عالية الضبط، والتى تستخدم أعدادًا كبيرة من المفحوصين .

أولاً : مناهج دراسة الحالات الفردية :

(١) المنهج الاثنوجرافى :

الاثنوجرافيا هى وصف تحليلى للمشاهد الاجتماعية، والأفراد والجماعات بشكل يؤدى إلى فهم مشاعرهم ومعتقداتهم وممارساتهم، كما أنها دراسة الاستراتيجيات التفاعلية فى الحياة الإنسانية. فاستراتيجيات جمع البيانات المستخدمة تؤدى للحصول على تصورات واضحة عن معتقدات الأفراد والجماعات وسلوكياتهم فى المواقف، والبيئات المختلفة .

ويركز الباحثون الذين يستخدمون المنهج الاثنوجرافى على دراسة الثقافة، أو الحضارة لدى جماعة معينة؛ حيث يكون هدفهم منصبًا على وصف طريقة الحياة من خلال توثيق المعانى المرتبطة بالأحداث المختلفة، وإظهار التكامل فيما بينها .

والمنهج الاثنوجرافى منهج جديد نسبيًا فى المجال التربوى. وربما يرجع سبب تحمُّس الباحثين له ـ فى بعض أسبابه ـ إلى عدم رضاهم عن المناهج والمداخل الأكثر تقليدية فى دراسة أنواع معينة من المشكلات التربوية. ومما يجدر ذكره أنه إذا كان استخدام المنهج الاثنوجرافى جديد فى المجال التربوى، إلا أنه كاستراتيجية بحثية ليس جديدًا، فقد استخدمه الانثربولوجيين منذ فترات زمنية طويلة .

ويعِّرف "حسن شحاته وزينب النجار" (٢٠٠٣: ٦٧) البحث الأثنوجرافي Ethnographic research بأنه بحث وصفى Descriptive تفسيرى Interpretative ونوعى Qualitative. وأن من أبرز خصائص هذا التصميم البحثى أن الملاحظ يستخدم الملاحظة المستمرة Continuous Observation حتى يتمكن من تسجيل كل شىء يلاحظة فى مجال الدراسة.

والبحث الأثنوجرافى يهتم بملاحظة المجتمع، أو ما يحدث فى المدرسة، أو الصف الدراسى، أو ملاحظة حدث أو برنامج معين من أجل التوصل إلى وصف دقيق وشامل للمعرفة المشتركة بين أفراد العينة، والتى تقود سلوكهم فى مجال معين، وهذا النوع من البحوث يهتم بوصف ثقافة المجتمع أو ثقافة الأفراد "معلمين ومتعلمين" داخل الصف الدراسى، ويعنى لفظ الثقافة هُنا المعنى الواسع من عادات وتقاليد وقيم ومعتقدات ومواقف فكرية ووجهات نظر.

ويتطلب البحث الذى يستخدم المنهج الاثنوجرافى جمعًا مكثفًا للبيانات، وهذه البيانات عن كثير من المتغيرات التى قد تمتد لفترة طويلة من الزمن فى موقف طبيعى. وكلمة موقف طبيعى تعنى أن المتغيرات موضع البحث تدرس فى مواضع حدوثها على نحو طبيعى. وليس فى بيئات ضبطها الباحث. وبسبب هذه الخاصية؛ كثيرًا ما يشار إلى هذا النمط من البحوث بأنه البحث الطبيعى، أو البحث الميدانى، أو الدراسة الطبيعية .Naturalistic ويفضل بعض الباحثين استخدام لفظ البحث الكيفى بشكل أساسى بسبب استخدام الملاحظة المشاركة كأسلوب فى البحث .

وفضلًا عن ذلك فإن بعض الباحثين يستخدمون لفظ " اثنوجرافى"، ولفظ كيفى؛ كلفظين مترادفين، بينما يرى آخرون أن البحث الاثنوجرافى نوع من البحث الكيفى، ولعل المدخل الذى يتبناه " جوبا Guba " هو المدخل الأكثر ملاءمة؛ فهو يتناول الموضوع على أساس أن الاستقصاء الطبيعى(اثنوجرافى)، وأن الاستقصاء العقلانى(استقصاء مسيطر عليه ومضبوط).وبينما يفضل الباحثون الطبيعيون Naturalisticالأساليب المنهجية الكيفية كالملاحظة بالمشاركة، والمقابلة الشخصية المعمقة، فى حين يفضل الباحثون العقلانيون ـ بدرجة أكبر ـ استخدام الأساليب المنهجية الكمية، كالاختيار العشوائى للمفحوصين، وتطبيق أدوات مقننة .

(ل. ر. جاى، ١٩٩٣: ٢٤٨).

ويتم البحث الاثنوجرافى فى مواقف طبيعية، ووحدة الملاحظة إذا تم استخدام المنهج الاثنوجرافى فى المجال التربوى ـ فيما يسمى الدراسة الاثنوجرافية ـ هى عادة

الفصل الدراسى، أو حجرة الدراسة، أو المدرسة، وعلى سبيل المثال؛ بدلًا من دراسة عملية التدريس أو عملية التعلم بجمع درجات التلاميذ على الاختبار قبل المعالجة وبعدها، فإن الباحث الذى يستخدم المنهج الاثنوجرافى، يعمل بطريقة أكثر استقرائية، عن طريق ملاحظة كثير من جوانب بيئة التعلم، ويحاول تعريف العوامل المرتبطة بالبيئات الفعالة وغير الفعالة .

والأساس أو التبرير العقلى الذى يكمن وراء المنهج أو الطريقة الاثنوجرافية فى البحث هو الاعتقاد فى ان السلوك يتأثر تأثرًا له مغزاه بواسطة البيئة التى يحدث فيها. وبعبارة أخرى، فإن السلوك يحدث فى سياق، وأن الفهم الدقيق للسلوك يتطلب فهمًا للسياق الذى يحدث فيه .

وتنظيمات كالمدارس، على سبيل المثال، تؤثر بالتأكيد فى سلوك الأفراد فيها. ولذلك يؤكد الباحثون الاثنوجرافيون على أنه إذا كنا نريد أن نعمم نتائج البحوث الاثنوجرافية على مواقف الحياة الواقعية، فإنه ينبغى أن تُستخلص النتائج، وتُستمد من بحوث تتم فى مواقف الحياة الواقعية.(ل. ر. جاى، ١٩٩٣: ٢٤٩).

الطريقة والإجراءات فى المنهج الاثنوجرافى:

قد يتطلب البحث الاثنوجرافى ملاحظة غير مشاركة، أو ملاحظة مشاركة، أو هما معًا. وتتميز الدراسات الاثنوجرافية ـ عادةً ـ بقدر من الملاحظة بالمشاركة على المستوى الظاهر. وتمثل الاثنوجرافيا بحوثًا متعددة الأدوات. ويستخدم الباحث الاثنوجرافى استراتيجيات منوعة لجمع البيانات إلى جانب الملاحظة. والملاحظة المبدئية بالمشاركة توفر بيانات توجه الباحث فى اختيار مداخل أخرى مناسبة. وتصنف هذه المداخل الممكنة إلى ما هو لفظى، وما هو غير لفظى .

أما المداخل أو الأساليب اللفظية فهى تتضمن أو تتطلب تفاعلات بين الباحث والأفراد فى بيئة البحث. وتتضمن أدوات مثل الاستخبارات(الاستبيانات)، والمقابلات، ومقاييس الاتجاه، والأدوات السيكولوجية الأخرى .

وأما المداخل أو الأساليب غير اللفظية فيقل احتمال تأثيرها فى الأنماط السلوكية

التى تتم دراستها، وتشمل استراتيجيات مثل استخدام أدوات التسجيل وفحص السجلات المكتوبة .

وإذا كان البحث الاثنوجرافى يتميز بالملاحظة المشاركة، وبالمدخل أو الطريقة الأكثر استخدامًا للاستقراء، فليس معنى هذا أنه أقل انتظامًا أو أنه بحث جزافى. ذلك أن الباحثين الاثنوجرافيين يخططون دراساتهم البحثية بدقة، كما يفعل ذلك الباحثون فى الأنماط الأخرى من البحوث، وينفذونها أيضًا بنفس الدقة. فبعد أن يحددوا مشكلات بحوثهم، يتخذون قرارات مستنيرة تتصل بأفضل بيئة وأنسبها للدراسة، وأكثر مستويات المشاركة فاعلية. وتتضمن هذه القرارات، تساؤلات أخرى تتصل بها مثل: مع أى الأشخاص فى البيئة تتفاعل؟ وماذا ينبغى أن تكون عليه طبيعة التفاعل، وعلى سبيل المثال ما أنواع الأسئلة التى ينبغى تسأل.. إلخ. وتوجه هذه القرارات بواسطة الفروض المبدئية أو الأولية .

ومن المعروف أن الفرض المبدئى يوجه كتابة جزء الدراسات السابقة، ومراجعة الأدبيات التربوية لمشكلة البحث، وبالتالى يوجه صياغة الفرض المحدد، والقابل للتحقيق؛ ونفس هذه العملية نجدها فى البحوث والدراسات الاثنوجرافية؛ ذلك أن الفرض المبدئى يوجه استراتيجيات جمع البيانات المبدئية. وتقترح جهود جمع البيانات المبدئية استراتيجيات أخرى ملائمة وما إلى ذلك. وبعد إتمام الدراسة التى قد تستمر شهورًا، يحلل الباحث البيانات التى قام بجمعها، ويحاول أن يشتق فروضًا محددة قابلة للاختبار تفسر السلوك الذى تمت ملاحظته. وهذه الفروض يمكن ـ عندئذٍ ـ اختبارها فى دراسات أخرى .

وعن الفرق الرئيسى بين المنهج الاثنوجرافى والمنهاج(أو المداخل) التقليدية، يذكر " ل. ر. جاى"(١٩٩٣: ٢٥٠) أنه يكمن فى أن مراجعة الأدبيات التربوية ذات الصلة بموضوع الدراسة، ودراسة البحوث والدراسات السابقة، والنظريات لا يؤدى إلى فرض فروض قابلة للاختبار، تدعمها نتائج الدراسة أو لا تدعمها .

وبدلًا من ذلك، فإن دراسة العمل السابق يؤدى إلى فروض تقريبية

واستراتيجيات يتم اتباعها فحسب. إن الباحث الذى يستخدم المنهج الاثنوجرافى لا يريد أن يكون متأثرًا كثيرًا بالنتائج التى نتجت عن تطبيق طرق البحث الأخرى، ويحتمل أن مثل هذه الدراسات لا تتضمن دراسة دقيقة للبيئة التى تم استقاء النتائج منها، أو الاحتمال الأكثر أن النتائج قد أخذت من بيئة مختلفة عن البيئة التى تستهدفها النتائج وتقبل التعميم عليها .

تجدر الإشارة إلى أنه حين استخدمت الاثنوجرافيا فى البداية لبحث المشكلات التعليمية استخدمت من قبل أشخاص تم تدريبهم على الطرق الانثروبولوجية. ومع زيادة انتشارها، ازداد استخدام أشخاص لهم خلفيات اكثر تقليدية، ولهم خلفية فى أساليب اختبار الفروض. وكانت النتيجة ظهور مدخل انثروبولوجى معدل، يمكن أن يتميز بأنه اثنوجرافيا ذات بنية أوضح .

أما عن إجراءات تطبيق هذا النمط من البحوث فإن الافتراض التقليدى أن فردًا واحدًا ـ وأحيانًا فردين ـ يذهب إلى مجال الدراسة، وينغمس فى الحياة فى الموقع، وبعد انغماسه بفترة طويلة فى هذا الموقع، يبدأ فى صياغة إطارٍ للتحليل. والإطار النظرى يتم تأسيسه من خلال الخبرة .

والمدخل التقليدى الذى تتم فيه دراسة حالة واحدة، قد يكمله مدخل متعدد المواقع كثيرًا ما يستخدم فى تحليل السياسة وتقويم البرنامج. وفضلًا عن ذلك، فإن فكرة الذهاب إلى ميدان الدراسة، والسماح للقضايا والمشكلات بالبزوغ بعد قضاء وقت مكثف فى دراسة الموقف، قد أفسحت المجال لصياغة مبكرة، أو مسبقة لمشكلات البحث، وتحديد الأنشطة المحددة التى تتم ملاحظتها، وكذلك تحديد الإطار التحليلى الذى على أساسه تجرى الدراسة. وكل هذا قبل الزيارة الأولى للموقع. والنتيجة النهائية هى مدخل واضح البناء يحدد مسبقًا لجمع البيانات وتحليلها .

ويرى بعض الباحثين أن تعديل البحث الاثنوجرافى هو تشويه للمنهجية؛ بينما ترى أغلبية من الباحثين أنه تحسين لها. من هؤلاء " شولتز وفلوريو Schultz, J.; " Florio.S.(1979)حيث قاما بتطبيق المنهجية الاثنوجرافية فى بحث إحدى

المشكلات التربوية. وكان الهدف من البحث هو دراسة جانب من عملية التنشئة الاجتماعية المتضمنة حين يدخل الأطفال بيئة المدرسة. وعن طريق عملية التنشئة الاجتماعية؛ يتعلم الأطفال أنماط السلوك الملائمة، وأنماط السلوك غير الملائمة فى مواقف منوعة .

ومن الجوانب المهمة لعملية التنشئة الاجتماعية إدراك توقيت تغيير السياق(بيئة المدرسة) على نحوٍ كافٍ يستلزم تغيير السلوك. وصاحب الدور الأساسى فى عملية التنشئة الاجتماعية داخل بيئة المدرسة هو المدرس، وقد ركزت دراسة " شولتز وفلوريو" على الأساليب التى تستخدمها مدرسة رياض أطفال لكى تنبه التلاميذ للتغير فى السياق(فى البيئة المدرسية)، وخاصة التغيرات فى بيئة المدرسة(السياق) التى تحدث فى فترة نشاط مفتوح تسمى " وقت العمل " وهى الفترة التى خضعت للدراسة .

ولقد تمت إجراءات الدراسة فى روضة أطفال، وفى الصف الأول الابتدائى فى ضاحية من ضواحى " ولاية بوسطن الأمريكية ". وركزت الدراسة على تحديد " ماذا يحتاج الأطفال إلى معرفته لكى يتصرفوا ويسلكوا على نحوٍ يعتبر ملائمًا فى داخل الفصل الدراسى؟

وقام الباحثان " شولتز وفلوريو" لتحقيق هذا الهدف بفحص السياقات المختلفة، وكذلك التفاعلات بين المدرسة والتلميذ ذات العلاقة. وقاما بجمع سبعين ساعة على شرائط فيديو خلال عامين، وأخذت مذكرات ميدانية استكمالًا لما ورد فى الساعات السبعين. وخلال العام الثانى من الدراسة، أنفق ملاحظ مشارك عدة أيام فى الأسبوع ليجمع بيانات تتصل بالسلوكيات الذى تم تسجيلها وتصويرها على شرائط الفيديو. وانتهى القائمان بالدراسة إلى أن التغيرات البيئية(السياقية) المتسقة فى السلوك تتطلب مجموعة منتظمة من الأنماط السلوكية من جانب المعلمة، حيث ربط الأطفال بين أنماط سلوكية معينة للمعلمة وضرورة الانتباه، وأن المعلمة إذا أخفقت فى إظهار هذه الأنماط السلوكية فى أى وقت، فإن الأطفال لا ينتبهون ويظهرون السلوك غير المناسب .

أنماط البحوث الاثنوجرافية:

يعتمد تصميم البحوث الاثنوجرافية وجمع البيانات والمعلومات فيها على أسلوب الملاحظة، أو المقابلة، أو تحليل الوثائق، أو يعتمد عليها جميعًا من أجل الوصول إلى فهم للظاهرة موضوع البحث. وتحتاج البحوث الاثنوجرافية من الباحثين القائمين بها الوجود فى موقع الدراسة لفترات طويلة من الوقت من أجل الفهم التام للأشخاص أو الظاهرات موضوع البحث .

ويذكر " خليل عباس وآخرون"(٢٠٠٧: ٢٠٤) أنه على الرغم من اختلاف الأساليب والوسائل التى يستخدمها الباحثون الاثنوجرافيون إلا أنها تشترك فى مجموعة من الخصائص، لعلها من أهمها ما يلى :

(١) جميع الأدلة مباشرة من الميدان، بواسطة الباحث نفسه عن طريق المشاركة الفعلية فى حياة الأفراد والجماعات، فى المواقف المختلفة فى سياقها الطبيعى .

(٢) توثيق وجهات نظر المشاركين فى الدراسة من خلال معايشتهم، وحوارهم المستمر مع بعضهم .

(٣) جمع البيانات والمعلومات من خلال أساليب متعددة. فالبحث الاثنوجرافى هو بحث تفاعلى يتطلب وقتًا طويلًا فى الملاحظة والمقابلة والتسجيل. وقد أشار كل من " فريد أبو زينة وآخرين"(٢٠٠٥) و" خليل عباس وآخرين"(٢٠٠٧: ٢٠٥) إلى ثلاثة أنماط من البحوث الاثنوجرافية وذلك على النحو التالى :

الأول: ملاحظة المشارك :Participant observation

فى هذا النمط، يقوم الباحث بالملاحظة فى موقع ميدانى لفترة طويلة نسبيًا، ويكون التركيز على تسجيل الحقائق، والمشاهد، كما يظهرها أو يبديها المشاركون، ويحاول الباحث اكتساب فهم واضح للمعنى من خلال ملاحظة الفروق والاختلافات اللغوية، إضافةً إلى الإشارات غير اللفظية، والتفاعلات الاجتماعية. والملاحظة بالمشاركة غير مقننة بمعنى أن أى شئ يمكن أن يكون مهمًا، لكن الباحث قد لا يقوم بتسجيل كل ما يحدث، ويتم تسجيل ملاحظات ميدانية مفصلة يتم تحليلها لبناء أفكار ذات معنى واستنتاجات يمكن توسيعها إلى حالات متشابهة .

الثانى: المقابلات الاثنوجرافية :Ethnographic interviews

المقابلة فى أبسط تعريف لها عبارة عن شكل من أشكال الحديث الهادف مع بعض الأشخاص الذين لديهم معلومات، حيث يتم إجراء المقابلات مع الأفراد للحصول على وجهات نظر المشاركين فى عالمهم، وفى كيفية فهمهم للأحداث المهمة. وغالبية هذه المقابلات ليست محددة، أو مقننة، أو محكمة البناء بصورة أساسية، بل مفتوحة لتوفير الفرصة للمشاركين لوصف، وتفسير الأشياء البارزة بالنسبة لهم، ويتم تحديد ما ورد فى المقابلة من مفردات وتعبيرات، واستخدامها كبيانات لتوضيح النتائج، والتوصل إلى الاستنتاجات .

الثالث: تحليل الوثائق والسجلات :Records analysis

يعد تحليل الوثائق من الأساليب غير التفاعلية للحصول على المعلومات، ويتم تحليل الوثائق مثل: اليوميات والرسائل والمذكرات، والتقارير والملفات، والأوراق الرسمية لتحديد وجهات النظر المختلفة حول موضوع أو مشكلةٍ ما. كما تتناول عملية التحليل؛ الوثائق الشخصية، مثل: اللوحات التذكارية، والملصقات، والجوائز، والرموز الدينية، ورموز أخرى، إضافة إلى مقاييس التآكل، مثل: تلف الرموز أو الماديات كالأبنية، أو الكتب، وتستخدم الوثائق الرسمية والشخصية لتقديم تفسيرات يمكن تدعيمها بالبيانات من خلال إجراء المقابلات والملاحظات .

تقويم البحث الاثنوجرافى:

إيجابيات البحوث الاثنوجرافية :

من أهم إيجابيات البحوث الاثنوجرافية أنها تقدم وصفًا أكثر شمولًا من طرق البحث التربوية الأخرى. فملاحظة السلوك الفعلى للأفراد فى المواقف الطبيعية تمكن من الفهم المتعمق والشامل لهذه السلوكيات. كما أن البحث الاثنوجرافى مناسب لدراسة الموضوعات التى يصعب تحويل إجاباتها إلى أرقام(كمية) فمثلًا آراء واتجاهات المدرسين والطلبة وأفكارهم وغيرها من السلوكيات التى تدعو الباحثين لاستخدام طرق بحث أخرى يمكن أن يستخدم فيها البحث الاثنوجرافى .

كما أن هذا النوع من البحوث مناسب للسلوكيات التى تفهم جيدًا من خلال ملاحظتها فى المواقف الطبيعية. فالدراسات التجريبية والمسحية يمكن أن تقيس الاتجاهات والسلوكيات فى مواقف افتراضية ولكنها غير مناسبة للمواقف الحقيقية. فمثلًا ديناميات اجتماع المدرسين أو التفاعل بين المدرسين والطلبة فى الصف الدراسى، يمكن دراستها جيدًا خلال البحث الاثنوجرافى، وكذلك يكون مناسبًا جدًا لدراسة سلوك الجماعة مع مرور الزمن ولفهم الحياة المدرسية فى منطقة نائية خلال عام دراسى.(خير الدين عويس، ٢٠٠٤: ١٢٥).

والخلاصة، أن التطبيق السليم للمنهج الاثنوجرافى فى المجال التربوى يتطلب تسجيلًا دقيقًا لمقادير كبيرة من البيانات، خلال فترات طويلة من الزمن بواسطة أشخاص تم تدريبهم تدريبًا دقيقًا على طريقة الملاحظة. ويصعب فيها تحليل النتائج، ومع طول الدراسة ـ عادة ـ، فإن النتائج يصعب إعادة الحصول عليها. وأنه على المستوى العملى، يميل البحث الاثنوجرافى إلى أن يكون أعلى تكلفة من المناهج البحثية الأخرى. وخطورة المشكلة أنه قد يتناول عينة قوامها حالة واحدة. ولما كانت وحدة الدراسة هى الفصل الدراسى أو المدرسة، فإن عدد أفراد العينة أو المفحوصين هو واحد، وهكذا يمكن أن تكون النتائج فريدة وتصدق على الوحدة التى وضعت موضع الدراسة .

وتشير الكتابات المتخصصة فى مناهج البحث إلى أن المشكلة الراهنة التى تواجهها البحوث الاثنوجرافية ليست خطأ المنهج(أو الطريقة)؛ وإنما الخطأ فى الأسلوب الذى تستخدم به، وتزايد أعداد الباحثين الذين يستخدمون هذه النوعية من البحوث بتدريب قليل، أو بغير تدريب. ومن هنا كثرة عدد الدراسات التى تزعم أنها تبنت المنهج الاثنوجرافى، وأصبحت هذه الدراسات مشجبًا يعلق عليه ضعف خطة البحث وتفككه وسوء تصدره. ومثل هذه النوعية من البحوث والدراسات يتخذ أصحابها أقصر الطرق بالنسبة لهم مثل قضاء أقل وقت ممكن فى الموقع الذى تتم دراسته .

بيد أن البحوث والدراسات التى يُستخدم فيها المنهج الانثروبولوجى حين

تستخدم وتطبق اجراءاتها على نحو سليم، يمكن لها أن توفر الفهم والاستبصار الذى قد لا يمكن تحقيقه باستخدام مناهج بحثية أخرى. كما أن الفروض التى تمت صياغتها، واشتقاقها من خلال الدراسات الاثنوجرافية تكون أكثر صدقًا فى كثيرٍ من الحالات، عن تلك الفروض التى تقوم على الأطر النظرية وحدها .

وبطبيعة الحال؛ من الأمور غير الواقعية أن يعتقد البعض أن استخدام المنهج الاثنوجرافى بنجاح فى مجال آخر؛ أى كما حدث عند الاستعانة به فى مجال الانثروبولوجى يمكن الاستعانة به كذلك واستخدامه بشكل كامل أى على النحو الذى هو عليه فى مجال ثانٍ هو المجال التربوى. ولكن يمكن القول أن المنهج الاثنوجرافى يمر الآن بمرحلة صقل، وتطوير وتطويع فى اتجاه منهج اثنوجرافى أكثر وضوحًا من حيث بنائه وتكوينه. ويمكن النظر إليه على أنه اتجاه إيجابى وقد يسفر عن طريقة فى البحث العلمى تجمع أو تستوعب أفضل ملامح الطرق التكاملية .

حدود البحوث الاثنوجرافية :

البحوث الاثنوجرافية مثل البحوث الأخرى لها حدود، فهى تعتمد كثيرًا على ملاحظات باحث معين، وهى نادرًا ما تكون بيانات رقمية. ولا توجد طريقة لمراجعة صدق استنتاجات الباحث. ونتيجة لهذا فإن تحيز الملاحظ يصعب حذفه، وعادةً ما تكون الملاحظة لموقف واحد(صف دراسى أو مدرسة) مما يصعب معه التعميم على المجتمع. وحيث أن الباحث يبدأ ملاحظاته دون فروض محددة لإثبات صحتها أو رفضها والمصطلحات قد لا يتم تعريفها. وبالتالى فإن المتغيرات المحددة أو العلاقات المطلوب بحثها قد تظل غير واضحة .

ولسبب هذا الغموض فإن التخطيط المسبق وإجراء المقابلات أقل فائدة عنها فى الدراسات الكمية وعلى الرغم من صحة عدم وجود دراسة يتم تنفيذها كما خطط لها إلا أن الأخطاء يسهل معالجتها فى الطرق الأخرى. ولهذا السبب نعتقد أن البحث الاثنوجرافى نوع من البحوث يصعب إجراؤه ومن ثم فإن الباحث المبتدئ يحتاج إلى إشراف مستمر إذا استخدم هذه الطريقة.(خير الدين عويس، ٢٠٠٤: ١٢٥ ـ ١٢٦).

(٢) **المنهج الإسقاطى** Projective method :

مقدمة :

قد يحدث حين يُطلب من أحد المفحوصين أو المبحوثين أن يدلى بمعلومات عن نفسه، أن يخفى اتجاهاته الحقيقية متعمدًا؛ أو قد ينقص أحد المفحوصين أو المبحوثين الاستبصار الكافى بدوافعه، أو قد يكون غير قادر على إعطاء أوصاف لفظية دقيقة وموضوعية لاستجاباته وخبراته، ولذلك ابتكر الباحثون الأساليب الإسقاطية؛ لسبر غور المجالات التى لا يمكن الوصول إليها بسهولة عن طريق استخدام الوسائل الأخرى، أو تلك التى تكون الأسئلة المباشرة فيها عرضةً لاستدعاء بيانات محرفة؛ فبدلًا من أن يطلب الباحث من المفحوص أو المبحوث معلومات معينة؛ يطلب منه أن يفسر مثيرات غامضة، أو يستجيب لها بحرية، مثل بقع الحبر، أو الصور، أو الجمل الناقصة، أو تداعى الألفاظ، أو أدوارًا درامية شبيهة بمواقف الحياة .

وعن طريق الاستجابات التلقائية التى تتكون وتتحدد ذاتيًا، يكشف المفحوص دون وعى منه؛ عن نواحى تنظيم شخصيته وخصائصها. على أن تفسير ما تتضمنه هذه الاستجابات أمر لا يستطيعه إلا العاملون المدربون تدريبًا راقيًا، كما أن تصحيحها عمل شاق. والأساليب الإسقاطية صعبة التقنين، كما أن كثيرًا من هذه الادوات لم يتم تقنينه بعد. ورغم أن الباحثين يتغلبون تدريجيًا على بعض نقاط الضعف فيها؛ إلا أنها لا زالت فى حاجة إلى عمل كثير(فان دالين، ١٩٩٠: ٤٨١ ـ ٤٨٢).

تعريف المنهج الإسقاطى:

يقصد بلفظ " الإسقاط Projection " فى علم النفس ـ بصفة عامة ـ أن يُسقط أو يفرغ الفرد ما يشعر به هو على غيره من الناس، وأن يترجم ويفسر سلوكهم بالرجوع إلى خبرته الذاتية هو، فيرى الناس من زاويته هو، وعلى ذلك فإن المنهج الإسقاطى يتلخص فى قيام الباحث بملاحظة سلوك الإنسان ثم تفسير هذا السلوك على أساس الخبرة النفسية للباحث نفسه، تلك التى سبق أن خبرها هو فى مثل هذا

الموقف السلوكى، وعلى ذلك إذا رأى ـ أى الباحث ـ شخصًا يبكى استنتج أنه حزين، وإذا رأى شخصًا يمشى ذهابًا وإيابًا فى وسط الحجرة استنتج أنه قلق.. وهكذا. ويعنى هذا أن هناك افتراض مؤداه أن أحوالنا النفسية تشابه الأحوال النفسية التى يخبرها الغير وذلك فى الظروف المتشابهة .

(عباس عوض، ١٩٨٢: ٦١).

أما الاختبار الإسقاطى فيشير إلى بعض الوسائل غير المباشرة فى دراسة الشخصية والتى يمكن بواسطتها الكشف عن شخصية الفرد نتيجة ما تهيؤه من مادة مناسبة يسقط عليها الفرد حاجاته ودوافعه ومدركاته ورغباته ومشاعره وتفسيراته دون أن يشعر أو يفطن إلى ما يقوم به من عمل .

والاسقاط هو العملية التى تعتمد عليها الاختبارات الاسقاطية فتقوم فكرة هذه الاختبارات على مثير غامض، يسمح بشتى التأويلات، وعندما يستجيب الفرد لهذه المثيرات، فإنه يسقط أفكاره ومشاعره وروافعه خلال استجابته. وعند تحليل هذه الاستجابات يمكن أن يتعرف على المشاعر المرفوضة والكريهة، والتى يلجأ الفرد إلى كبتها وإبعادها عن الشعور. (علاء كفافى، ١٩٩٠: ٣٨).

والإسقاط بلغة " فرويد " هو أحد العمليات الدفاعية التى يعزو بها الفرد دوافعه وأحاسيسه ومشاعره للآخرين أو للعالم الخارجى ويعتبر هذا بمثابة عملية دفاعية يتخلص الفرد عن طريقها من الظواهر النفسية غير المرغوب فيها، والتى إن بقيت سببت ألمًا للفرد. فالإسقاط عند " فرويد " هو عملية دفاعية لا شعورية تسير وفق مبدأ اللذة، يترتب عليها خفض التوتر. وينتقد بعض العلماء الاختبارات الإسقاطية حيث يقولون بأنها اختبارات ذاتية وليست موضوعية وأن قدرتها ضعيفة على التمييز بين الأسوياء وغير الأسوياء .

خصائص الأساليب الإسقاطية :

تهدف الأساليب أو الفنيات الأسقاطية Projective techniques إلى تقدير الحالة الأنفعالية أو ديناميات الشخصية، وقد تستخدم لقياس الاتجاهات أحيانًا، وذلك

بتشجيع المفحوص على إسقاط حالته النفسية الداخلية أثناء استجابته لمثيرات غامضة أو غير محددة البناء Unstructured.

تتميز الأساليب الإسقاطية على اختلاف أنواعها وأنماطها وأشكالها وصورها؛ بخمسة خصائص يلخصها "فؤاد أبو حطب وآمال صادق" (١٩٩٦: ١٦٢ ـ ١٦٣) على النحو التالى :

الأولى: أن المثيرات والمواقف والتعليمات المستخدمة فى هذه الأساليب تتسم بأنها غير مكتملة البنية، وقد تصل إلى حد الغموض، وذلك يشجع المفحوص على حرية الاستجابة وتنوعها .

الثانية: أن المفحوص عادةً ما يكون غير واعٍ بالطريقة التى سوف تفسر بها استجاباته، وبالتالى لا تتأثر الأساليب الإسقاطية بالمرغوبية الاجتماعية، أو أساليب الاستجابة التى تتسم بها طرق التقرير الذاتى، أو الاختبارات الموضوعية، والتى قد يدرك فيها المفحوص بطريقةٍ أو أخرى نوع التفسير الذى قد يعطى للاستجابة .

الثالثة: أن الأساليب الإسقاطية لا يوجد فيها استجابات محددة مقدمًا؛ وإنما هى قابلة للتصنيف بطرق مختلفة. ففى بعض هذه الطرق يكون التركيز على الخصائص الشكلية للاستجابة(اختبار بقع الحبر إعداد: رورشاخ مثلًا)؛ وفى البعض الآخر يزداد الاهتمام بمحتواها(اختبار تفهم الموضوع للأطفال، كات؛ واختبار تفهم الموضوع للكبار، تات)، وقد تستند بعض الأساليب إلى الطريقتين معًا الشكل والمحتوى(كالطرق التعبيرية مثل الأدب، والفن، والموسيقى).

الرابعة: أن الافتراض الأساسى فى الأساليب الإسقاطية، هو أن طريقة المفحوص فى إعادة بناء مواد الاختبار والاستجابة لها هى دالة لخصائص معرفية ووجدانية، وخاصةً الحيل اللاشعورية التى يصعب الوعى بها، أو صياغتها فى قالب لفظى؛ ومعنى ذلك أننا عند استخدام الأساليب الإسقاطية نهتم بالفرد على انه " عالم من الوقائع الداخلية "، ونبحث عن الديناميات التى تميزه ككائن فريد، ولا نهتم بالخصائص العامة التى تجعله متشابهًا مع غيره(حسب المنهج التجريبى)، أو مختلفًا عنهم(حسب المنهج السيكومترى).

الخامسة: أن من صعوبات الأساليب الإسقاطية ما تتطلبه من وقتٍ وجهد وتدريب فى تصنيف الاستجابات وتصحيحها وتفسيرها. وتحتل مسألة التفسير موضعًا مهمًا؛ لأن الأهم هو تحديد دلالة ومغزى كل استجابة وعلاقتها بالصورة العامة الكلية للشخص. ففى اختبار بقع الحبر الذى أعده رورشاخ مثلًا؛ يفترض فى استجابات الحركة ـ على سبيل المثال ـ أن تظهر الابتكارية، والتحليل بينما تظهر استجابات اللون عدم الاستقرار الوجدانى، وهكذا .

الأسس التى تستند إليها الأساليب الإسقاطية :

وتجدر الإشارة إلى أن هناك بعض الأسس التى تستند إليها الأساليب الإسقاطية والتى يذكرها كل من " نايفة قطامى ومحمد برهوم، ١٩٨٩: ١١٨ ـ ١١٩) على النحو التالى :

(١) طريقة إدراك الفرد وتفسيره لمادة الاختبار تعكس جوانب أساسية فى شخصيته، فالفرد يسقط أفكاره واتجاهاته وأنواع الصراع التى يعانى منها فى إجابته أو إجاباته عن بنود وفقرات وأشكال الاختبار .

(٢) ليس هناك استجابة صحيحة وأخرى خاطئة فى الاختبارات الإسقاطية، وإنما تتعدد الاستجابات بشكل غير نهائى .

(٣) المفحوص حر فى إطلاق مشاعره واستجاباته على الاختبار .

(٤) لا يدرك المفحوص فى العادة الهدف من الاختبار، ولذا فهو يستجيب فى ظروف طبيعية غير محرفة .

(٥) إن الهدف الأساسى من الأساليب الإسقاطية هو الحصول على صورة كلية لشخصية الفرد .

نستنتج مما سبق أن الأسلوب الإسقاطى يعكس تأثير أسلوب التحليل النفسى خصوصًا مفهوم الدوافع اللاشعورية .

وقد يلجأ الباحث فى مجال الدراسات النهائية إلى استخدام المنهج الإسقاطى بهدف الكشف بطريقة غير مباشرة عن خصائص الفرد وشخصيته من المكونات اللاشعورية والحيز الضمنى الكامن، أى من عالمه الخاص، وذلك نظرًا لأن

الحصول على مقاييس تقيس انفعالات الأفراد وعواطفهم قد يكون من الصعوبة بمكان بعيد .

وبمقارنة هذا المنهج بغيره من المناهج التى تتطلب استجابات محددة من الفرد، نجد أن هناك اختلافًا كبيرًا، إذ أن الفرد فى هذه الحالة يُسمح له بل ويشجع على أن يستجيب بمدى واسع من الأفكار أو الأفعال، وبذلك تكون استجاباته، بمقارنتها بالطرق والأساليب الموضوعية، كثيرة وغنية ومتفاوتة. كذلك تكون الاستجابات متميزة بالخيال الجامح، ولا تحكمها قواعد للصحة والخطأ .

وبالرغم من أن الفرد قد يكون عارفًا بطريقة عامة جدًا باهتمام الباحث ـ الذى يقوم بدراسة شخصيته أو اختبار تخيلاته، فإنه لا يوجد فى أى من الطرق الإسقاطية، كما تستخدم عادةً، ما يجعل الفرد عارفًا بتفصيلات هذا الموقف .

الطرق الإسقاطية:

يمكن تصنيف ثلاثة مستويات للإسقاط حسب درجة الوضوح أو التحديد للمثيرات التى تتكون منها الأداة الاسقاطية:

الأول: أداة اسقاطية محددة البناء Structured.

الثانى: أداة اسقاطية شبه محددة البناء Semi-Structured.

الثالث: أداة إسقاطية غير محددة البناء Un- Structured.

وهناك عدد كبير من الطرق الإسقاطية يمكن استخدامها فى البحوث التربوية والنفسية والاجتماعية. وهى تُقسم بطرق مختلفة حسب أوجه التشابه والاختلاف. ومن أهم تلك التقسيمات ما اقترحه " ليندزى(1960)Lindzey "، حيث قسمها إلى خمسة أقسام، هى: التداعى، الإنشاء، التكميل، الترتيب، والتعبير. وفيما يلى توضيح للمقصود بكل قسمٍ منها على حدة :

(أ) أسلوب التداعى الحر :Free Association

ويقصد بالتداعى فى مجال علم النفس ـ بوجه عام ـ رابطة أو علاقة بين الأفكار أو المشاعر على المستوى الشعورى أو اللاشعورى .

وعند استخدام طريقة التداعى فى المنهج الإسقاطى يُطلب من الفرد أن يستجيب للمثير الذى يقدم له بأول تفكير يخطر على عقله، وقد يكون هذا المثير كلمة أو صوتًا أو صورة. ومن أهم الوسائل لذلك اختبار بقع الحبر لرورشاخ Rorschach Ink-Blot Examination الذى ابتكره " هنرى رورشاخ " Rorschach, H(1942)، ويتكون هذا الاختبار من عشر بطاقات على كل منها بقعة من الحبر ذات تماثل، خمس بطاقات منها باللونين الأسود والرمادى، واثنتان منها باللونين الأسود والأحمر، وثلاثة ملونة بأكملها. وتقدم البطاقات واحدة فى كل مرة مع سؤال الفرد بعض الأسئلة، مثل: ماذا يمكن أن تكون هذه؟ " أو " بماذا تذكرك هذه؟ " وبعد أن يستجيب الفرد إلى إحدى هذه البطاقات، وبدون أى خلفية من التوقعات، فإنه يرى فيها بعض الأشياء التى يدركها، ومحددات ما يراه ومحتواه، وتأثير الألوان على استجابته، وهكذا[1].

أما النموذج الأساسى لأسلوب التداعى، فربما يكون اختبار تداعى الكلمات Word-association test، حيث تقدم قائمة من الكلمات، عادة ما تكون بطريقة شفهية، وتذكر كلمة واحدة تتبعها كلمة أخرى، ويطلب من الفرد أن يستجيب بأول كلمة تخطر على باله لكل منها .

وطريقة أخرى للتداعى لها بعض الأهمية وإن كان استخدامها محدودًا للغاية، وهى اختبار " صور السُحب Cloud pictures test " ، الذى وضعه " ستروف (Struve, 1921)"و" ستيرن(Stern,1938)" ، وهو يتكون من مجموعة من ثلاث صور أوحت بها لعبة رؤية الأشياء فى السحب العابرة. أما حاصل الجمع اللفظى الذى وضعه " سكينر(Verbal summator,1936) Skinner "، وعدَّله كل من " شاكو" و " روزنزفيج(Shakou & Rasenzweig, 1940)" ، فيقدم العديد من الأصوات غير المتمايزة، ويطلب من الفرد أن يعطيها معنى، ولكنه كسابقه محدود الاستعمال(سعدية بهادر، ١٩٧٧: ٤٦ ـ ٤٩).

---

(١) لمزيد من التفصيل عن اختبار بقع الحبر لـ «رورشاخ» أو غيره من الاختبارات الإسقاطية يمكن الرجوع إلى الكتاب الرصين التالي:
سيد غنيم وهدي برادة (١٩٦٤م): الاختبارات الإسقاطية، القاهرة: دار النهضة العربية.

الصورة الأولى

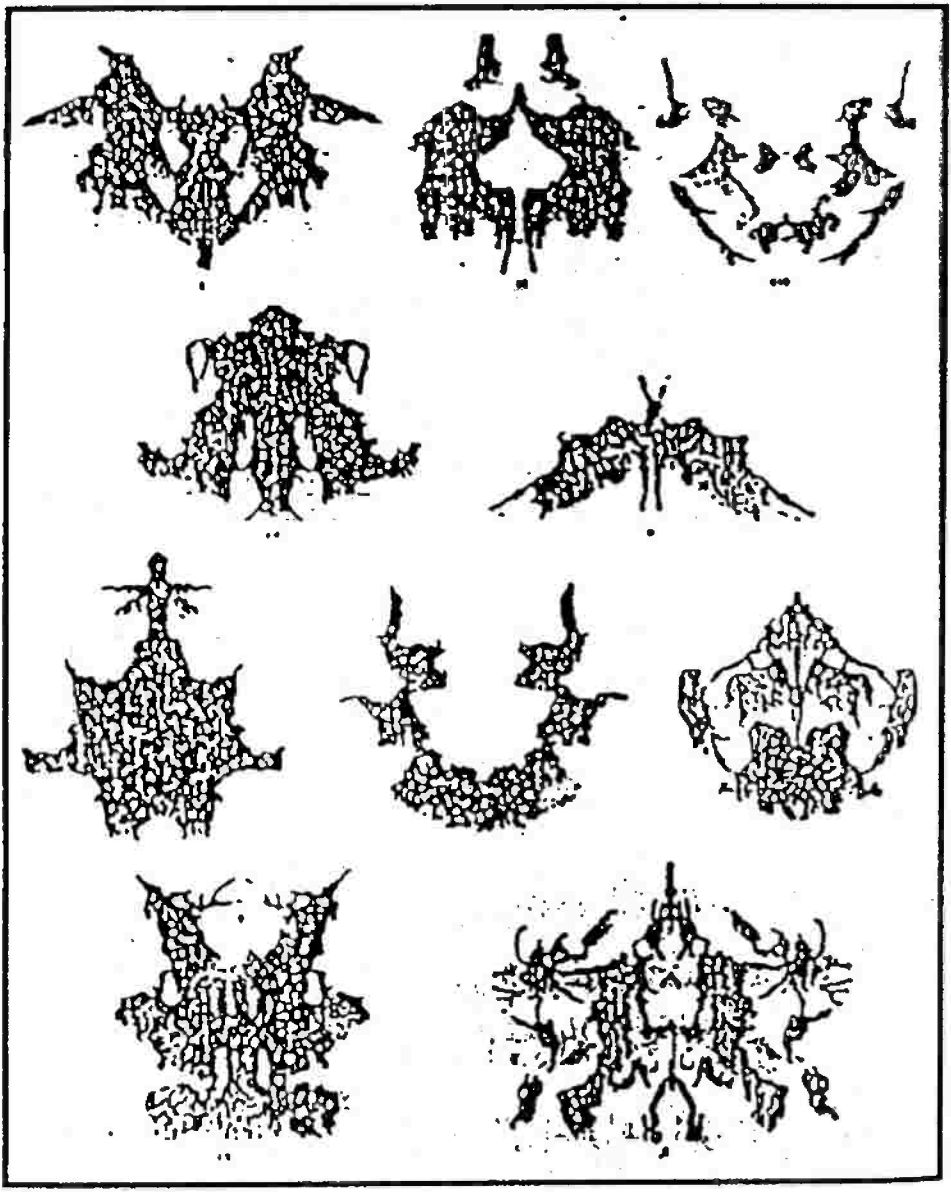

الصورة الثانية

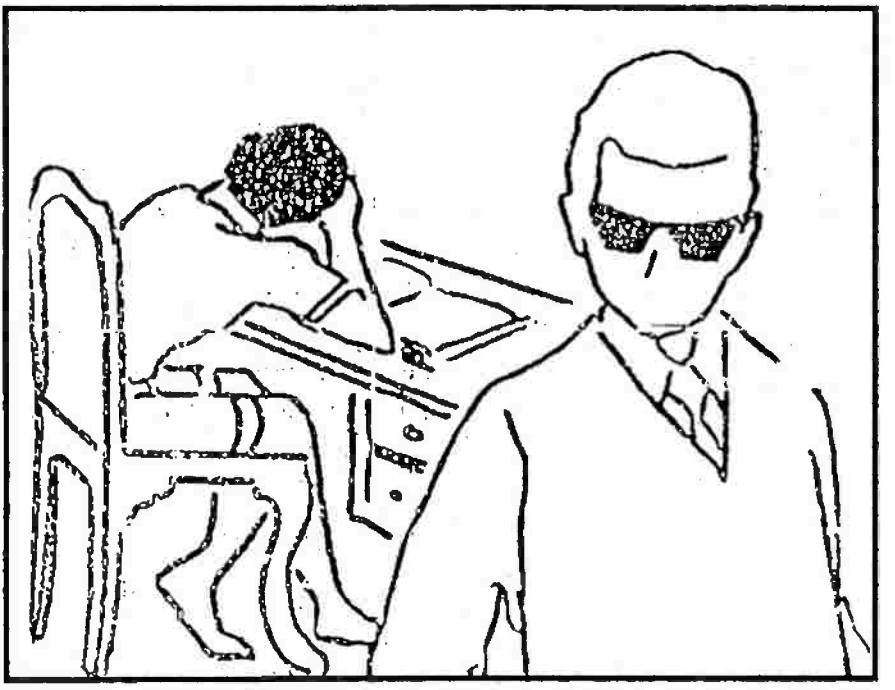

(ب) **الطريقة البنائية** :Structural method

فى هذه الطريقة يُطلب من الفرد أن ينتج شيئًا، غالبًا ما يكون قصة من صور تستخدم كمثير، ولا يطلب من الفرد فى هذه الحالة أن يذكر الفكرة الأولى التى تطرأ على باله، وإنما يكون التأكيد على أن يذكر لب القصة أو جوهرها. وبالطبع يوجد هنا نوع من التداعى ولكنه يتضمن أيضًا عملًا معرفيًا Cognitive فى تنظيم الأفكار لتكوين قصة، ومن أشهر وسائله اختبار تفهم الموضوع لـ " موراى Murray " Thematic Apperception test(1944)، ويعتبر هذا الاختبار النموذج الذى بنيت على أساسه الوسائل الأخرى المرتبطة بهذا النمط من الدراسة، ولهذا الاختبار صورتان، إحداهما للأطفال تتكون من عشرين بطاقة(Morgan & Murray, 1953) والأخرى للكبار. وفى كلتا الصورتين يُطلب من المفحوصين أن يفسروا أفعال من هم بالبطاقة وتفكيرهم وشعورهم، وأن يذكروا تخيلاتهم للأحداث التى سبقت ما هو فى الصورة، والنتائج النهائية، وتصحيح القصص تبعًا للحاجات والضغوط والنتائج التى تظهر فيها .

ومن الأساليب البنائية أيضًا اختبار " ميتشجان المصور The Michigan " picture testالذى وضعه " هارتويل وآخرون Hartwel, et al "، وهو يتكون من(٢٠) صورة لم ينشر منها حتى الآن إلا(١٢) صورة، وقد وضع للاستخدام مع أطفال المدرسة الابتدائية، ويغلب على صوره وأشكاله ورسوماته الأحداث المدرسية والأحداث التى تقع للأطفال فى هذا العمر .

وكذلك هناك اختبار " اعمل قصة مصورة Make a picture story test " من وضع " شنايدمان (Shneidman, 1948, 1949, 1951)" وهو يتكون من خلفيات لمناظر تعطى للمفحوص واحدة واحدة مع عدد كبير من صور للناس والحيوانات يختار منها الفرد ليركبها على خلفية المنظر، ويذكر عنها قصة بعد ذلك .

أما اختبار الصور الأربع الذى وضعه " فان لينيب" فى الفترة بين عامى ١٩٤٨، ١٩٥١ Van Lennep's four pictures test فيتكون من أربع صور ملونة تمثل شخصين فى موقف اجتماعى، وموقف تفاعل متبادل، وصورتين لشخص واحد،

وعلى الفرد أن يضع هذه الصور فى أى ترتيب يختاره، وأن يكوِّن قصة يدخل فيها كل الصور .

وهناك أيضًا اختبار " فيليبسون " لعلاقات الأشياء The object relations test of Phillipsonويتكون من ثلاث سلاسل كل منها يتكون من أربع صور وبطاقة خالية، وتمثل الصور شخصًا واحدًا، شخصان، ثلاثة أشخاص، وموقف جماعى.(سعدية بهادر، مرجع سابق: ٥٠).

(جـ) الطرق التكميلية :Completion methods

يقدم للمفحوص فى فنية التكميل Completion technique بعض المواقف الناقصة، وعليه أن يكملها بأية طريقة يختارها فى حدود تعليمات الفاحص، ولهذه الطريقة صورتان أساسيتان هما: إكمال الجمل، وقص القصص أو إكمالها .

والصورة الأولى مبنية على مفهوم اختبار تداعى الكلمات، وإن كانت تختلف عنه كثيرًا فى أن المثير عادةً ما يكون أطول وأكثر تعقيدًا. الاستجابة المطلوبة تؤدى لجملة كاملة، ومن وسائلها صحيفة الجمل الناقصة لروتر :

The Rotter incomplete sentence blank(Rotter & Raffetry, 1950, Rotter & Willerman, 1947)وهى صحيفة مصممة لدراسة مدى تغير التكيف الشخصى .

وهناك اختبارات أخرى لذلك، ولكنها كلها بوجه عام يُنظر إليها على أنها تؤدى إلى الحصول على معلومات عن الاتجاهات والدوافع والصراعات فى مستوى شعورى أكثر من تركيب وتنظيم الشخصية .

وأما قص القصص وتكميلها فيمثل اختلافًا عن اختبار تفهم الموضوع وتكميل الجُمل، ومن وسائله " اختبار سيرجنت للاستبصار Sergent's insight test, " 1944, 1955، وتعديله الذى قام به " إنجل (Engel, 1958)"ليصبح اختبار الاستبصار للأطفال، وهو يمثل ربطًا مفيدًا بين اختبار القلم والورقة وبعض

المبادئ للاختبارات الإسقاطية، وهو يهدف للاستبصار بالدوافع الإنسانية عند الأفراد، ومنه أيضًا اختبار " روزينزفايج " المصور للإحباط Rozenzweig picture frustration test، الذى يقدم مجموعة من الصور الكاريكاتيرية التى تتعلق جميعها ببعض الظروف والصورتان التاليتان تمثلان نموذجين من هذا الاختبار .

(د) أساليب الترتيب أو التنظيم فى بناء معين :

وهى عبارة عن أساليب تتطلب إعادة بناء أو تصنيف مواد ومثيرات محددة من الطفل. فى هذه الأساليب ينظر الفرد فى سلسلة من الصور يقدمها المختبر للمفحوص ليرتبها تبعًا لمبدأ خاص يضعه المختبر. ومن وسائل هذه الطريقة اختبار " سيزوندى The Szondi test "وهو من أحسن الاختبارات المعروفة من هذا النمط. ويتكون من(٤٨) صورة فوتوغرافية لمرضى نفسيين من الراشدين مأخوذة من بين(٨) ثمانية مجموعات تشخيصية .

وكذلك اختبار ترتيب الصور The Picture arrangement وهو يتكون من(٢٥) خمس وعشرين صورة كاريكاتيرية بها نفس الأشكال فى ثلاثة أنشطة مختلفة ولكنها مرتبطة. وعلى الفرد أن يشير إلى الترتيب الذى حدثت به هذه الأنشطة، وأن يصف ما يجرى فى كل صورة بجملة من عنده .

(هـ) الطرق الوصفية أو التصويرية :Descriptive methods

وفيها يعبر المفحوص بالتعبير الحر عن مشكلاته وهمومه، وتختلف الطرق الوصفية أو التصويرية عما سبقها من الطرق السابقة فى المنهج الإسقاطى فى عديد من النواحى، إذ أنها تربط ما بين الخصائص التشخيصية والخصائص العلاجية. ومن أهم وسائل هذه الطريقة " فنية اللعبPlay technique " ، حيث أن اللعب يعتبر مجالًا طبيعيًا للطفل الصغير، يتكلم ويعيش فيه بنفس الطريقة التى يسلك بها البالغ مستخدمًا الألفاظ، فالأطفال فى أثناء اللعب الحر يكشفون لنا عن العديد مما فى أنفسهم. وتستخدم فنية اللعب فى الأغراض التشخيصية والعلاج النفسى

أيضًا[*]. ويدخل فى هذه الطريقة الرسم والتلوين والسيكودراما[**] Psychodrama ولعب الأدوار .Role playing والمقصود بالسيكودراما هو أن يمثل الشخص بنفسه أو مع آخرين بعض أنماط الدراما الإنسانية أو مواقف إنسانية مناسبة(نايفة قطامى ومحمد برهوم، مرجع سابق: ١١٩ ـ ١٥١).

والخلاصة أن الاختبارات أو الأساليب الإسقاطية وسائل خاصة للكشف عن الجانب اللاشعورى فى الشخصية. وأنها تقوم على طريقة إدراك الفرد لمثير حسى ثم مزج هذا الإدراك مع تأويله الشخصى الذى يتأثر دائمًا باتجاهاته وخبراته النفسية، وأن الإسقاط عملية لا شعورية يسلك الفرد أثناءها واحدًا أو أكثر من الطرق الإسقاطية التى درسها علم النفس. فهو يعزو إلى آخرين أسباب أو أفكار أو اتجاهات أو انفعالات تخصه أو ينسب حاجاته الشخصية أو ميوله أو مخاوفه إلى غيره، أو يترجم المواقف والحوادث لا كما هى فى ظاهرها ولكن كما تبرزها له احساساته وخبراته الشخصية (Gardner, 1960).

(٣) المنهج الكلينيكى Clinical method:

يستخدم تعبير " كلينيكى" أو " عيادى Clinical "فى المجال الطبى وفى اللغات الأجنبية للإشارة إلى جملة المعارف التى تكتسب عن طريق ملاحظة المرضى بدون الاستعانة بوسائل البحث أو الضبط العلمية. وبهذا المعنى تتمايز " العيادة Clinic " عن المختبر، كما يتمايز المنهج الكلينيكى كما سنرى عن المنهج التجريبى .

ويمكن عن طريق هذا المنهج دراسة وتشخيص السلوك الفردى، وخاصة عندما يبدو النمو وقد انحرف عن الخط الطبيعى كما حدده علماء النمو النفسى. ولقد أوحى بهذا المنهج ما أفصحت عنه " كشوف فرويد " التحليلية من أهمية

(*) لمزيد من التفاصيل (انظر: كلارك موستاكس، (تأليف) عبد الرحمن سيد سليمان، (ترجمة) (١٩٩٠)، علاج الأطفال باللعب، القاهرة، دار النهضة العربية.

(**) يمكن الرجوع إلى دراسة للمؤلف فى هذا الصدد، عبد الرحمن سيد سليمان (١٩٩٤): السيكودراما، مفهومها، عناصرها، واستخداماتها، حولية كلية التربية ـ جامعة قطر، السنة (١١)، العدد (١١)، ص ٣٩٦ ـ ٤٥٦.

الخبرات التى يمر بها الطفل ـ فى سنواته الخمس الأولى ـ فى خلق مشكلات سلوكية قد تعطل نموه الطبيعى وسلوكه السوى .

ويطلق "جابر عبد الحميد وعلاء الدين كفافى" (١٩٨٩: ٦٢٧) على المنهج الكلينيكية مُسمى الطريقة الكينيكية ويشيران إلى أنها ذات ثلاثة معانٍ هى:

الأول: أنها لفظ عام يشمل جميع طرق واجراءات تشخيص وتصنيف وعلاج الأمراض والاضطرابات الأخرى.

الثانى: أنها مدخل لدراسة الظواهر النفسية (السيكولوجية) المضطربة والسوية؛ يقوم على التحليلات الشخصية والحدسِّية والذاتية.

الثالث: أنها فى إطار مصطلحات "جان بياجية" تعنى طريقة لجمع البيانات تستند إلى تفاعل شبه طبيعى مع الطفل؛ فيه يعرض المجرِّب شيئًا أو عملًا ويسأل أسئلة معينة. ويسمح للطفل أن يستجيب بحرية وينتقل المجرِّب بعد استماعة للاستجابات إلى أعمال أخرى ليطرح أسئلة إضافية. ولفظ "بياجيه" هذا يعكس إدراكه بأن طريقته فى جمع البيانات تشبه فى جوانب كثيرة المقابلة الطبية النفسِّية.

ويشير "نبيل حافظ" (٢٠١١: ٣٨) إلى أن المنهج الكلينيكى منهج اتبعه عالم النفس السويسرى "جان بياجيه" فى دراسة النمو العقلى المعرفى للطفل يستند إلى الملاحظة المنظمة لسلوك الطفل وقيامه باختبارات أدائيه، وإجراء الحوار معه.

وغالبًا ما يستعمل هذا المنهج بصورة فردية، ويمكن من خلال استخدامه الحصول على حقائق عديدة تصلح جدًا لاستنباط قواعد عامة لتطور ونمو السلوك الإنسانى وديناميات هذا التطور .

وعادةً ما يكون الهدف من استخدام هذا المنهج ـ كما أشرنا ـ التشخيص وأحيانًا العلاج. مثال ذلك: حولت إحدى المدارس طفلًا إلى عيادة نفسية لأنه يعانى من مشكلات سلوكية، وجاء فى تقرير الأم أن الطفل عنيد، متمرد، فظ، عنيف، عدوانى، ويتحدى العقاب أو التهديد، وقد هرب من المنزل عدة مرات، فى هذا

المثال تبدأ عادةً دراسة تاريخ الحالة بعقد مقابلة يتم فيها الحصول على بيانات تتعلق بتطور تاريخ حياة هذا الطفل مع الاهتمام بالأحداث والمواقف والخبرات ذات الدلالة بالنسبة للمشكلة الحالية .

وحينما يسعى الباحث إلى أن يضيف إلى هذه البيانات نتائج بعض الاختبارات التى أجريت على الطفل والخاصة بالاستعدادات والذكاء والشخصية، يكون فى مقدور الباحث(المرشد أو المعالج النفسى) أن يقيم قوى الفرد، وأن يفهم الأسباب الكامنة وراء سلوكه فى ضوء تاريخ، وبالتالى يستطيع مساعدته ببرنامج عملى للإرشاد والعلاج... ولدراسة الحالات أيضًا قيمة علمية عامة، فبعد جمع كثير من الحالات من نوعٍ واحد يمكن تحليل السجلات واستخدام الأدوات الإحصائية للتوصل إلى مقدار الارتباط بسلوك الفرد ـ والعوامل المؤثرة فيها .

وفى المنهج الكلينيكى ـ يحتاج الباحث ضمن ما يحتاج ـ إلى فهم الأسس العامة والأسباب التى تؤدى إلى مشكلات من النوع موضع الدراسة. ودارس الحالة لابد أن يلم بطبيعة بيئة الحالة التى يدرسها من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. إلخ، وأن يكون ملمًا بسيكولوجية الفرد، وله خبرة فى تقييم الأسباب المؤثرة فى المشكلة ومنح كل سبب ما يستحق من اهتمام. أى أنه لابد من تتبع جذور المشكلة التى ندرس الحالة من أجلها، والتعرف على ملابسات حدوثها ومرات تكرارها ووقت نشأتها. ومن أهم الجوانب التى ينبغى للدارس أن يجمع بيانات عنها ما يأتى: النمو الجسمى، والتكيف المدرسى، والعلاقات الأسرية، والقدرات العقلية والاهتمامات الخاصة، والتوافق النفسى والاتزان الانفعالى .

ولقد استخدم المنهج الكلينيكى على أيدى علماء كثيرين منهم " ويتمر " Witmerكما عنيت به " ميلانى كلاين M. Cline "فى دراستها على الأطفال، وذلك باستعمال اللعب فى دراسة الاتجاهات النفسية عند المضطربين منهم[1]، ولهذا أصبح

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاج الأطفال باللعب يمكن الرجوع إلى: عبد الرحمن سيد سليمان (٢٠٠٧). علاج الأطفال باللعب. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.

لحجرة اللعب دور كبير فى دراسة نمو السلوك واستخلاص الكثير من الحقائق عن ديناميات الانحراف فى النمو على وجه الخصوص. إلا أن الطرق الكلينيكية، سواء كان ذلك باستعمال اللعب أو غيره من وسائل تشخيص السلوك تحتاج إلى توفير شروط مهمة منها :

(١) أن يلم الدارس إلمامًا دقيقًا بتاريخ حياة الطفل وظروف نموه .

(٢) أن يلم بنتائج وتأثير هذه الظروف فى نموه الانفعالى .

(٣) أن يكون على وعى كامل بكل علاقاته الاجتماعية بالوالدين وغير الوالدين وبما تعرض له أثناء هذه العلاقة من إحباطات أو خبرات مؤلمة .

(عماد الدين إسماعيل، مرجع سابق: ٤٩).

هذا ويمكن أن يكون الطفل أو المراهق موضوع الدراسة هو نفسه مصدر هذه المعلومات، كما يمكن أن يكون المصدر أحد الوالدين أو كليهما أو المدرسين أو الأخصائيين الاجتماعيين أو غيرهم. وتمدنا العيادات النفسية سواء عيادات علاج الأطفال أم عيادات علاج الكبار بالعديد من الحالات التى تمت دراستها وتشخيصها، وكان لها أكبر الأثر فى بيان تأثير ظروف معينة مر بها الطفل على نمو سلوكه وشخصيته مستقبلًا .

أدوات الأخصائى النفسى الكلينيكى :

سبق أن أشرنا إلى أن الباحث الذى يستخدم المنهج الكلينيكى كمنهج للبحث فى ميدان الدراسات التربوية والنفسية والاجتماعية يتعين أن يتوفر فيه ثلاثة شروط أساسية حتى يكون بمقدوره التعرف على ديناميات الانحراف فى النمو.. وحتى يتحقق له ذلك على وجه مُرضٍ يمكنه الاستعانة ببعض الأدوات التى من أبرزها :

(أ) الاختبارات السيكولوجية(المقننة والإسقاطية):

وهى تعتبر من أكثر الأدوات أهمية فى الكشف عن سلوك الفرد أو أدائه فى مواقف معينة، فهى تكشف عن قدرات الفرد الخاصة، كما تكشف عن

العوامل المؤثرة فى سلوك الفرد، هذا بالإضافة إلى كشف مشاعر الفرد واتجاهاته وميوله .

وفيما يتعلق باستعانة الباحث الذى يستخدم المنهج الكلينيكى بالاختبارات النفسية نجده فى حاجةٍ إلى إجراء مقابلة يطلق عليها " المقابلة المرافقة للإختبارات النفسية " ويقوم بها الباحث على مرحلتين، الأولى: مقابلة ما قبل الاختبار النفسى وذلك لتهيئة المريض عقليًا ونفسيًا للتخفيف من مخاوفه وقلقه من موقف الاختبار حتى يكون أداءه سليمًا. والثانية مقابلة ما بعد إجراء الاختبار وذلك لإشباع رغبة المريض فى معرفة نتائج الاختبارات التى طبقت عليه. وهذا الإجراء له أثره البالغ ـ خاصة إذا كان الذى نتعامل معه طفل أو مراهق ـ على نفسية الشخص؛ لأنها تخفف من حدة التوتر الناشئة عن تطبيق الاختبارات، كما أنه يساعد من ناحية أخرى فى توجيه الحالة نحو العلاج .

وتبدو أهمية البيانات الكمية والكيفية المتمثلة فى نتائج الاختبارات السيكولوجية من المصادر ذات الأهمية فى تحديد قدرات الفرد وتقييم سلوكه الشخصى، فهى تكشف للكلينيكى عن المحتوى العقلى للفرد وعن الخلفية الثقافية والمعتقدات السائدة فى مجتمعه، وعن الجماعة التى ينتمى إليها .

(ب) دراسة الحالة :

إذ أنها تتضمن جمع المعلومات التى يمكن جمعها من المجالات المختلفة عن حالة الفرد مثل: تاريخ النمو والتاريخ الدراسى، والتاريخ الصحى والاجتماعى والأسرى، وتتيح دراسة الحالة للأخصائى الكلينيكى فرصة جمع بيانات شاملة عن تاريخ الفرد الكلى .

وتعتبر دراسة الحالة أداة استطلاعية، ذلك أنها تركز على الفرد، فى حين أنها تهدف إلى التوصل إلى وضع الفروض، ولذا فإن دراسة الحالة هى الإطار الذى ينظم ويقيِّم فيه الكلينيكى كل المعلومات والنتائج التى يحصل عليها من الفرد،

وذلك عن طريق المقابلة والتاريخ الاجتماعى والفحوص الطبية والاختبارات السيكولوجية، أى أن دراسة الحالة هى المجال الذى يتيح للكلينيكى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات والبيانات عن المريض وعن مشكلاته حتى يتمكن من إصدار حكم قيم نحو الحالة التى بصددها.(فيصل عباس، ١٩٨٣: ٦٩).

ومن ناحية أخرى هناك من يرى أن دراسة الحالة أداة قيمة تكشف للأخصائى وقائع حياة شخص معين منذ ميلاده حتى الوقت الحالى. وهذه خطوة أساسية فى المنهج الكلينيكى لجمع معلومات تاريخية عن المريض ومشكلاته بأسلوب علمى منظم. وهذا يساعد الأخصائى على وضع الفروض الأولية التى يحاول فيها بعد اختبار صحتها من خبراته التشخيصية السابقة.(محمود الزيادى، ١٩٦٩: ١٣).

(جـ) المقابلة المباشرة مع الشخص المضطرب :

فهى أداة من الأدوات المهمة فى فهم الفرد، وإدراك مشاعره واتجاهاته حيال المواقف التى يواجهها، وحيال الأشخاص المحيطين به فى الأسرة والمجتمع، وذلك بسبب ما تتيحه للأخصائى الكلينيكى من فرصة الملاحظة المباشرة لسلوك الفرد، وفهم مشكلته عن كثب. وفى المقابلة المباشرة يطلب الباحث " الأخصائى" من الفرد ـ طفلًا كان أم راشدًا ـ عرض شكواه كما هى، ويشجعه على الاستمرار فى حديثه، ولذلك يتعين تسجيل شكوى الطفل أو المراهق كما يعرضها، وتقصِّى تاريخ المشكلة من حيث بداياتها وعلاقاتها بالأحداث المختلفة فى تاريخ حياته والوسائل التى استخدمها لمواجهتها .

خصائص المنهج الكلينيكى :

يتمتع المنهج الكلينيكى كأحد المناهج المستخدمة فى مجال الدراسات التربوية والنفسية والاجتماعية بعدة خصائص يمكن الإشارة فيها إلى أنه :

(أ) منهج يهتم بالفرد ككل :

فهو منهج لا يهتم ببعض مظاهر السلوك دون الأخرى، ولا يحاول تقسيم

السلوك إلى مظاهر عديدة أو عوامل يحاول أن يعزلها بعضها عن بعض ليتناول إحداها أو بعضها بالدراسة كما هو الحال فى المنهج التجريبى، الذى يستخدم عادةً لتتبع خيط معين أو ظاهرة محددة من مظاهر السلوك يخضعها لشروط تجريبية معينة بقصد الوصول إلى القوانين أو النظريات التى تفسرها وتتحكم فيها، وإنما يهتم المنهج الكلينيكى بكل ما يبدو من الفرد كحالة متكاملة، فيدرسها بالتفصيل ويعالج كل الظواهر المتعلقة بها، سواء منها ما يتصل بالفرد نفسه وعوامله الذاتية أو بالظروف المحيطة به التى يعيش فيها وتؤثر فيه .

ويعتقد أصحاب هذا المنهج أن هذا الفهم المتكامل لشخصية الفرد أدعى إلى التعرف عليه تعرفًا حقيقيًا، أما فهمه نتيجة فهم الظواهر المختلفة التى تؤثر فيه والعوامل التى تشكله كلًا على حدة فهو من وجهة نظرهم فهم قاصر .

(ب) منهج يهتم بالطبقات العميقة من الشخصية :

ولا يهتم هذا المنهج بالعوامل الظاهرة من السلوك بقدر ما يهتم بالطبقات العميقة من الشخصية والعوامل الكامنة المؤثرة فيها. ولذلك فهو يعطى أهمية خاصة للعمليات اللاشعورية ويرى أنها هى المسؤولة فى الغالب عن السلوك الظاهر للإنسان، وأنه بالتالى لا يمكن فهم هذا السلوك وتفسيره تفسيرًا سليمًا إلا على ضوء فهم هذه العمليات اللاشعورية التى تتم بعيدًا فى الأعماق .

وقد كان يُعتقد قبل " فرويد " أن الإنسان إنما يتصرف فى حياته تبعًا لدوافعه الشعورية وحدها، على أساس أنه كائن حى يعرف دوافعه ونزعاته ويستطيع بالتالى أن يسيطر على سلوكه وتصرفاته؛ لكن ثبت عن طريق دراسة العديد من الحالات، وخاصة الحالات المرضية، أن الإنسان تحكمه بجانب هذه الدوافع الشعورية دوافع أخرى ونزعات لا شعورية، وإن هذا النوع الأخير من الدوافع والنزعات التى لا يفطن الإنسان إلى وجودها، أكثر عمقًا وأبعد أثرًا، وأنه يكمن عادة وراء الظواهر غير الطبيعية فى سلوكه .

والتعرف على هذه الدوافع اللاشعورية والعمليات التى تدور بعيدًا داخل أعماق الإنسان من الأمور المهمة التى لا يمكن فهم سلوك الإنسان على حقيقته إلا على ضوء فهمها، وعلى ضوء توضيح العلاقة بينها وبين السلوك الظاهر للإنسان .

(جـ) منهج يهتم بالتصور الدينامى للشخصية :

ويهتم المنهج الكلينيكى أيضًا بالتصور الدينامى للشخصية، الذى يقوم على أساس تصور الصراع بين نزعات الإنسان ورغباته وبين متطلبات العالم الخارجى، وهذا الصراع قد يكون شعوريًا أو لا شعوريًا. ولعل تصور " فرويد" عن الشخصية يعطى أوضح مثال لهذا النوع من التصور .

يرى " فرويد " أن الإنسان يولد ولديه مجموعة من الغرائز الجنسية والعدوانية حيال الآخرين، ويقوم الإنسان فى أثناء نموه بكبت هذه الغرائز بتأثير العوامل الاجتماعية حتى يستطيع أن يعايش الآخرين، وبالتالى، فهو يعمل على تغيير طبيعته. واعتقد " فرويد" أن معظم العمليات النفسية يتم حدوثها دون أن يكون الفرد واعيًا بها، أى أنها عمليات لا شعورية، ويعتبر مفهوم اللاشعور بمثابة المفهوم الرئيس فى نظرية " فرويد" عن طبيعة الإنسان، ويعتبر اللاشعور بمثابة مخزن للغرائز والحفزات البدائية والصراعات المؤلمة ومشاعر الذنب المختلفة وجميع ما يُهدد احترام الفرد لذاته. ويتم اختزان هذه المحتويات فى اللاشعور لأن المجتمع لا يقبل مثل هذه الحفزات البدائية والغرائز الحيوانية، وذلك عن طريق عملية نفسية معينة تتم على مستوى لا شعورى تُعرف بعملية الكبت، غير أن هذه المحتويات لا تفقد بل تظل هناك فى هذا المستودع، وتؤثر على سلوك الفرد دون وعى منه، ويعتبر سلوك الإنسان نتيجة للتفاعل بين ثلاثة أجهزة فى الشخصية وهى: الهى، الأنا، الأنا الأعلى .

وتتكون الهى من الدوافع البيولوجية التى تنقسم إلى نوعين: دوافع الحياة وهى الدوافع الجنسية أساسًا، وهذه تكون الطاقة الأساسية للحياة ويطلق عليها

مفهوم(الليبيدو).أما النوع الثانى من الدوافع فهى دوافع الموت والتحطيم مثل الدوافع العدوانية. وتعمل الهى على أساس مبدأ اللذة؛ فهى تطالب بالإشباع الفورى لما تحتويه من دوافع بيولوجية، وتتصف بالأنانية وعدم قدرتها على أخذ الاعتبارات الاجتماعية فى الحسبان، ولا ترتبط بالواقع، ولهذا يقال فى هذه النظرية أن الهى تعمل عن طريق العملية الأولية، وهى تستطيع تكوين صورة خيالية لموضوع الإشباع، ولكن هذه الصورة العقلية لا تؤدى إلى إشباع، ولهذا ـ يتمايز عن الهى جزء ينمو ليكون بمثابة الوسيط بين الواقع والهى، هذا الجزء هو الأنا التى تنشأ أساسًا لإشباع حاجات الهى، وتعمل الأنا على أساس مبدأ الواقع، هى تستخدم ما لديها من إمكانات عقلية على نحو يؤدى إلى تحقيق أهداف الهى، وقد تضطر الأنا إلى كبح جماح الهى، وإرجاء إشباع الدوافع الفطرية حتى يحين الوقت المناسب، ولهذا يقال أن الأنا تعمل على أساس العملية الثانوية.(عبد السلام عبد الغفار، ١٩٧٦: ٢٩).

ثم تقدم هذه النظرية الجزء الثالث أو الجهاز الثالث من أجهزة الشخصية وهو " الأنا الأعلى " ويتكون الأنا الأعلى نتيجة لما تتعلمه الأنا من محرمات وقيم خلقية، والأنا الأعلى هو ما نطلق عليه بصفة عامة " الضمير"، وهو يختص بما هو صواب، وما هو خطأ، وبنمو الأنا الأعلى تتكون قوة جديدة ومركز جديد لضبط الهى. وتعمل الأنا الأعلى من خلال الأنا لكف الهى عن إشباع كل ما يراه المجتمع خطأ أو محرمًا من الدوافع .

وهكذا فالعلاقات بين هذه الأجهزة الثلاثة هى التى تحدد نوع سلوك الإنسان، وغالبًا ما يكون الصراع بين الهى ـ بمحتوياتها التى لا يقرها المجتمع ـ والأنا الأعلى بما تمثله من صواب وخطأ، أو بين المرفوض اجتماعيًا والمقبول اجتماعيًا، ويقع على الأنا عبء الوصول إلى حل لهذا الصراع، وقد تتضح ا لعلاقة بين أجهزة الشخصية الثلاثة من ناحية وبين مكونات اللاشعور وما قبل الشعور والشعور من ناحية ثانية من خلال الشكلين التاليين .

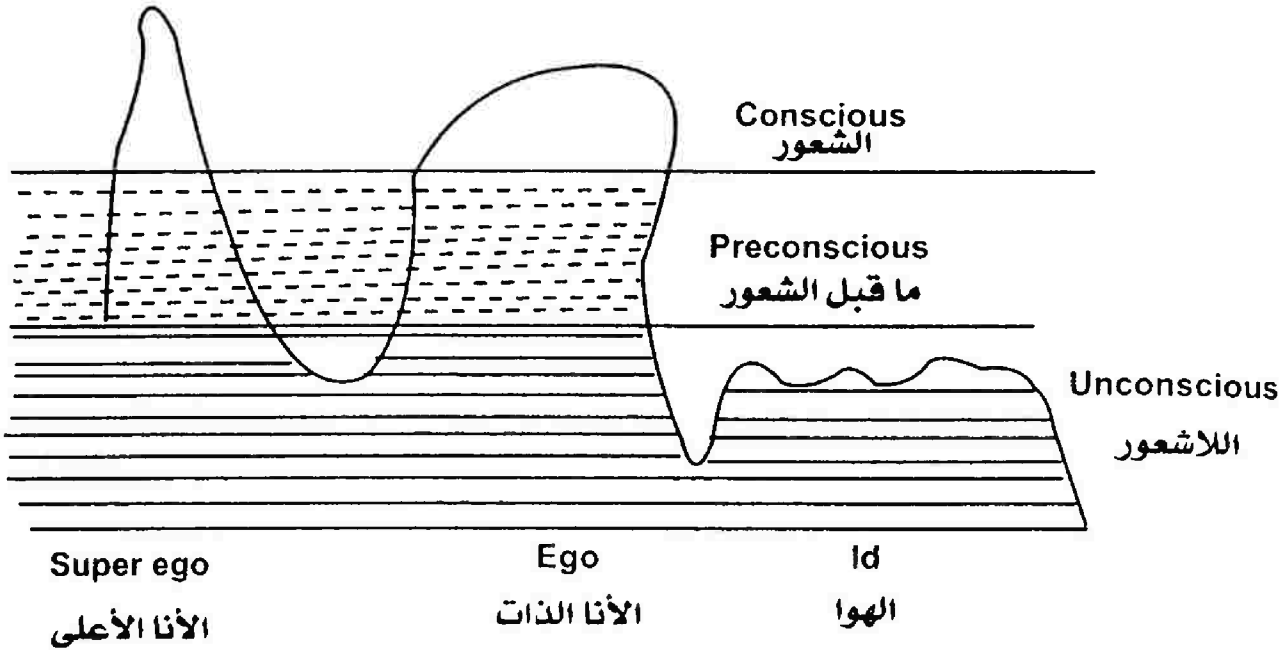

Relatioship
العلاقة الصلة

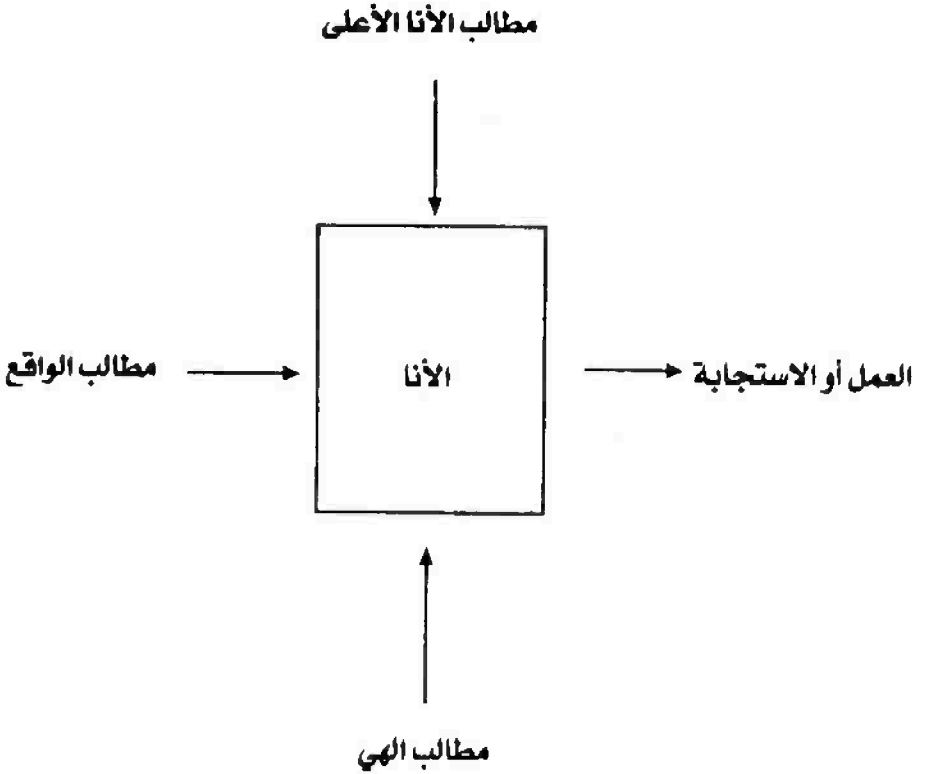

العلاقة بين الأنا والأنا الأعلى والهي

(كولمان ١٩٧٢ ـ ٥٣)

(عبد السلام عبد الغفار ١٩٧٦ - ٣٠)

وهكذا نجد أن الشخصية عند " فرويد" أبعد ما تكون عن الثبات والجمود، وإنها تنظيم دائم التفاعل والدينامية.(محمد الجبورى، ١٩٨٤).

(د) منهج يهتم بتاريخ الفرد(و تحديدًا طفولته):

يرى أصحاب المنهج الكلينيكى أن أسلوب الفرد الراهن لا يمكن فهمه تمام الفهم إلا على ضوء تاريخ حياة الفرد كلها، فكثيرًا ما تلقى دراسة حياة الطفولة وتتبع ما يحدث للطفل خلال مراحل حياته المتتالية، الضوء على كثير من مظاهر السلوك التى تتصل بالحاضر .

ويهتم أصحاب مدرسة التحليل النفسى بهذه الناحية كثيرًا لاعتقادهم أن أغلب العمليات اللاشعورية ذات الأثر الفعال فى حياة الإنسان إنما تتم خلال الفترة المبكرة من حياته ـ خلال سنوات الطفولة الأولى ـ حيث تسيطر على الطفل نزعاته ورغباته بشكل أكبر من قدرته على التصرف بالنسبة لها أو التحكم فيها، ومن ثم يضطر إلى مقاومة أغلبها وكبتها فتنتقل إلى اللاشعور .

ومن هنا تأتى أهمية الرجوع إلى هذه الفترة المبكرة من حياة الإنسان للتعرف على طبيعة المؤثرات التى تعرض لها وقتها، والتى تركت طابعها الخاص فى نفسه، والتى انتقلت إلى اللاشعور وظلت من وقتها حية تعمل عملها وتحدث أثرها فى سلوكه .

من أجل ذلك ابتدع " فرويد " منهج التحليل النفسى الذى يرمى من ورائه إلى كشف مثل هذا النوع من العوامل اللاشعورية ذات الماضى البعيد، والتى قد تكون السبب فى انحراف سلوك الإنسان ولا سويته، ليكشف عنها ويعين المريض على التعرف عليها وفهم أسباب اضطرابه، وكيف نشأ وتطور حتى ظهر فى شكله الأخير، نقصد شكلها العصابى بلغة التحليل النفسى، وليكشف بالإضافة إلى ما سبق حقيقة الصلة بين الخبرات الصادمة الباكرة وبين أعراض الاضطراب، تلك الأعراض التى تفصح عن نفسها بشكل يختلف عن شكلها الأصلى. حتى إذا أمكن للمريض أن يضع يديه على هذه العوامل والمؤثرات التى تربط ماضيه بحاضره، أمكن للمعالج مساعدته على التخلص من الأعراض التى يشكو منها .

وبناءً على ما سبق يتضح أن نظرة المنهج الكلينيكى لاضطرابات الفرد وفهمه لهذه الاضطرابات فهم متكامل، فهو لا يركز على دراسة بعض مظاهر السلوك دون الأخرى، ولا يوجه عنايته لمظهر معين، وإنما يهتم بكل ما يبدو من الإنسان وهو لا يكتفى بالمؤثرات اللحظية أو الأعراض الراهنة، وإنما يتتبع فى أغلب الأحوال المسببات الأولى ونشأة الأعراض، ثم أنه فهم دينامى يستند على تصور الصراع. والصراع يشير إلى المواقف التى تقع فيها شخصية الفرد تحت تأثير قوى متضاربة وأفعال يصعب التوفيق بينها، ويهتم أيضًا بالقوى الكامنة وبالعمليات اللاشعورية العميقة ويوليها أهمية خاصة، ويعتقد أنها فى أغلب الأحوال هى المسؤولة عن تصرفات الإنسان وعن المظاهر التى تبدو لنا فى سلوكه .

(إبراهيم وجيه، مرجع سابق: ١٤٧).

وخلاصة القول أن المنهج الإسقاطى يعتمد على إثارة المفحوص حسيًا للحصول على استجاباته. وأنه يتبع فى ذلك عدة طرق أحدها تقديم مثير بصرى واضح كالصور فى اختبار تفهم الموضوع، أو تقديم مثير بصرى مُبهم كبقع الحبر فى اختبار " رورشاخ ". وقد يكون المثير المقدم لفظيًا كما هى الحال فى اختبارت تكملة الجمل أو اختبار تداعى المعانى. وهناك فئة أخرى من الاختبارات لا تبدأ الإسقاطات الخاصة بها إلا بعد رسومات يؤديها المفحوص أولًا، يُسأل بعدها أسئلة خاصة مدروسة، وتسمى فى هذه الحالة الإسقاطات التعبيرية ومنها اختبارات رسم الشخص واختبار رسم المنزل والشجرة والشخص. ثم ظهر حديثًا نوع آخر من الوسائل الإسقاطية يسمى إسقاطات اللعب، بعضها للأطفال ويستخدم العرائس والدمى كوسائل للإسقاط، وآخر للكبار يستخدم التمثيل المسرحى التلقائى الذى يؤلفه الأفراد المفحوصون أثناء التمثيل مباشرة فلا يسبقه تمرين أو دراسة، والاستجابات الإسقاطية نفسها تكون إما شرحًا تلقائيًا أو تعليقًا مفتوحًا يدلى به المفحوص ويخص الموقف أو المنظر أو الكلمة المعروضة عليه، أو تكون إجابة عن أسئلة محددة مدروسة توجه إسقاطه إلى ناحية معينة .

(عماد الدين إسماعيل، مرجع سابق: ٥٠).

وبرغم كل ما سبق عرضه من الخصائص التى يتمتع بها المنهج الكلينيكى إلا أن بعض علماء النفس يرون أنه طريقة ليست علمية وذلك لثلاثة أسباب :

الأول: أنه يقوم على درجة كبيرة من الذاتية ومن ثم هناك قدر من عدم الثقة فى الكثير من المادة التى تتجمع بهذه الطريقة .

الثانى: أنه يهتم بسلوك الفرد غير القابل للتكرار بدلًا من الاهتمام بالتعميمات التى يمكن أن تنطبق على كل الأفراد أو على أنماطهم السلوكية .

الثالث: أنه يستغرق وقتًا طويلًا، ويحتاج ـ كما سبقت الإشارة ـ إلى أفراد متدربين جيدى المران، وعلى وعى تام بحقائق السلوك الإنسانى .

إلا أنه وبرغم هذه المآخذ من الممكن فى ظل استخدام هذا المنهج أن يقف الدارس على الكثير من المعلومات ذات القيمة فى تفسير النمو، كما أنه يفيد كثيرًا فى إبراز الفروق الفردية فى هذه العملية .

(جابر عبد الحميد وخيرى كاظم، ١٩٧٨ : ١٠٨).